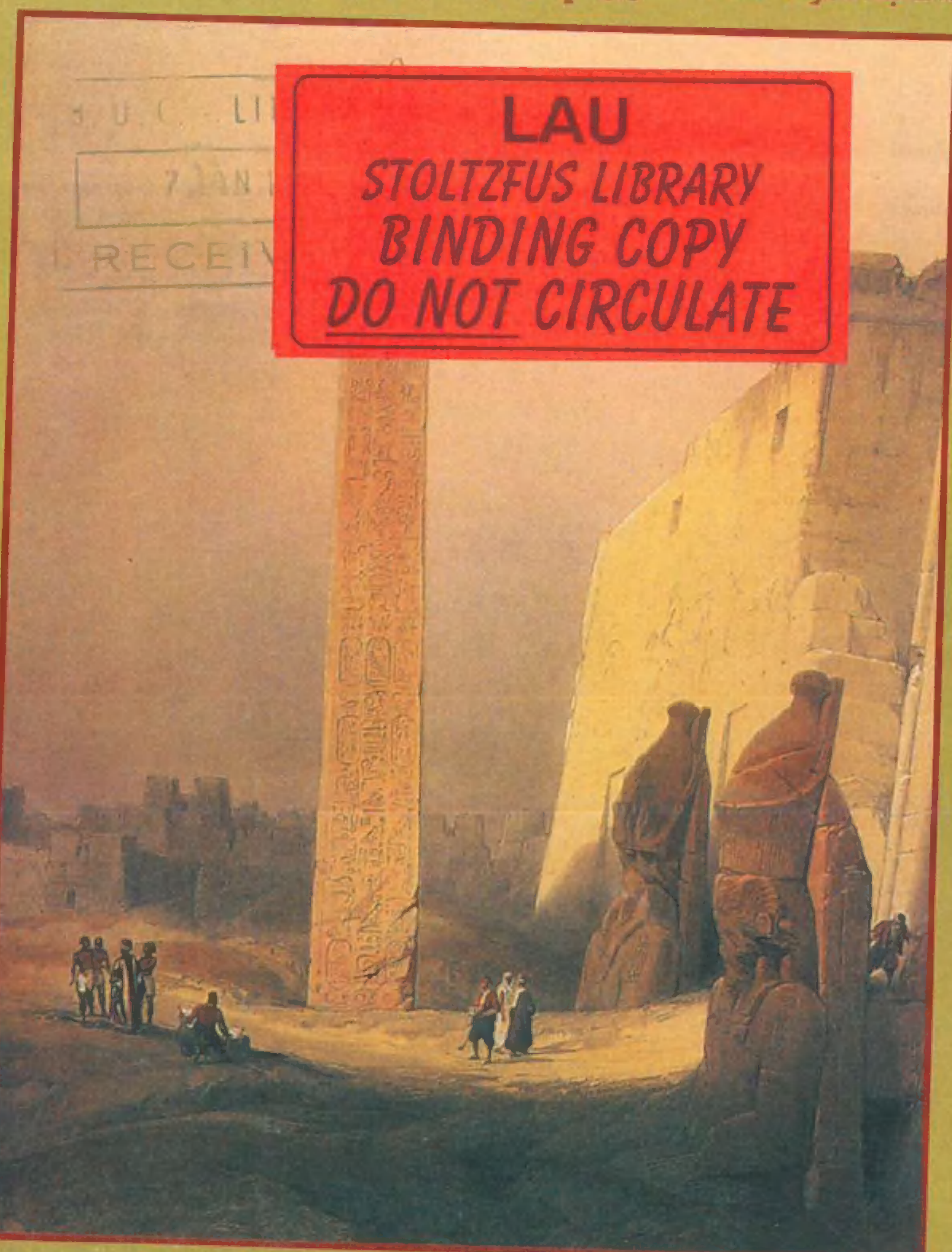
تاريخ العرب والعالم

مجلة مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة السابعة عشرة - العدد ١٧٠ - تشرين ثاني/نوفمبر - كانون أول/ديسمبر ١٩٩٧ - رجب/شعبان ١٤١٨هـ



من هنا بدأت الحضارة

أو

تاريخ زراعة القمح في فلسطين

فيصل صالح الخيري*



(*) باحث في التراث الفكري الفلسطيني.



قصة زراعة القمح في فلسطين، إنها، باختصار شديد، قصة شعب قدم للمدينة أهم معطياتها، انها قصة الحضارة كلها.

وهذه حقيقة لا يحتاج إثباتها إلى عناء كثير، بل كل ما يحتاج إليه هو، فقط، إعادة سرد شهادة التاريخ.

عاش الإنسان، ما لا يقل عن مليون عام، هائماً على وجه الأرض، معيشة بدائية، أقرب منها إلى معيشة الحيوان، وقد قسّم علماء ما قبل التاريخ هذه الحقبة من حياة الإنسان على أساس المادة التي صنع منها الإنسان أدواته. ودلت الحفريات على أن فلسطين مرت بهذه العصور جميعاً، وعاش فيها الإنسان الذي انتمى إلى كل منها بمختلف أصوله، وأشكاله، وحضاراته[١].

١ ـ العصر الحجري القديم

ويعود تاريخه إلى أكثر من ١٥٠,٠٠٠ سنة، وكان الإنسان في هذا العصر همجياً عارياً، يتغذى بما يجده من نباتات وجذور وثمار، وما يتصيده بهراوته من طير وحيوان؛ أما سكنه ففي الغابات. وباكتشاف هذا الإنسان للنار، بدأ أعظم انقلاب في تاريخه، فصار يطبخ طعامه؛ واتخذ المغاور بيوتاً له. وقد عثر الباحثون على بقايا الهياكل البشرية لهذا العصر في مغارة «الزطية»، قرب طبرية، حيث وجدت فيها جمجمة تعرف بجمجمة طبرية، وعاش صاحبها قبل نحو ٢٠٠,٠٠٠ سنة؛ وعلى بقايا هياكل أخرى من مغارتي «السخول» و«الطابون»، من كهوف «مغارة الواد»، قرب عتليت في جبل الكرمل؛ وفي مغارة «القفزة»، قرب الناصرة، ويعود عهدها إلى ما قبل ١٠٠,٠٠٠ سنة، على الأقل.

إن فحص هذه الهياكل والجماجم أثبت بأنها كانت حلقة بين الإنسان البدائي والحالي، وقد أطلق على هذا النوع اسم «إنسان فلسطين».

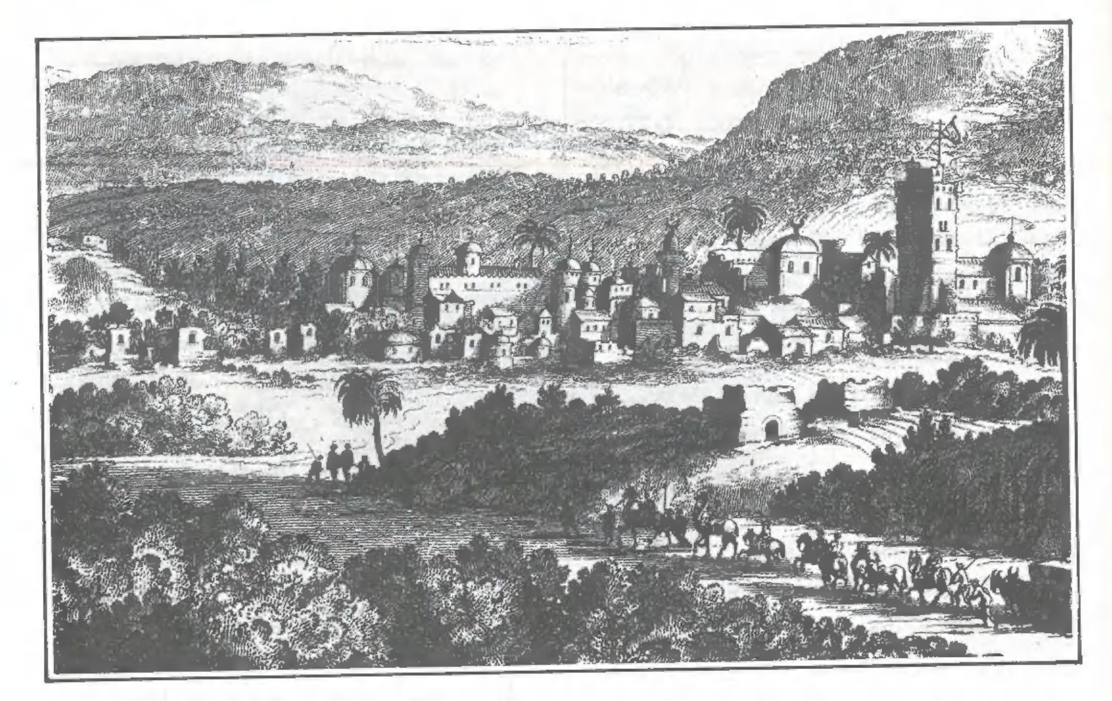
وقد عثروا على بقايا آثار وأدوات العصر الحجري القديم، من مقاشط وفؤوس يدوية ومحافر وشفرات سكاكين وغيرها من الآلات الصوانية، في أماكن مختلفة من فلسطين. وتعتبر قطع الفحم التي عثروا عليها في «مغارة الطابون» من أقدم القطع التي عثروا عليها من نوعها، وتعود بتاريخها إلى نحو ١٥٠,٠٠٠ سنة.

ومن أهم الأعمال التي حققها الفلسطيني، في العصر الحجري القديم، نشوء النطق لديه. يستنتج مما تقدم أن فلسطين كانت من أقدم مواطن الإنسان، ورأى بعض علماء الآثار أن بلادنا كانت مهداً «للإنسان العاقل»، أو الإنسان الحديث[٢].

٢ ـ العصر الحجري الوسيط

وهو العصر الذي استمر نحو ستة آلاف سنة، اعتباراً من حوالي عام ١٢,٠٠٠ق.م.، وسيكون هذا العصر محور دراستنا واهتمامنا، إذ أنه يتضمن، تقريباً، جميع مراحل تقدم الإنسان وارتقائه.

إن الانتقال من القنص، وصيد السمك، وجمع النبات، أي تلقي منتجات الطبيعة الجاهزة، إلى إنتاج الطعام (الزراعة؛ وتربية الماشية)، والتبدلات المرتبطة بهذا، حوّلت، بوضوح ـ أكثر من أي شيء آخر ـ ظروف تطور الحضارة، وغيرت بيئة الإنسان الطبيعية،



□ الرملة (١٦٦٨) بناها الخليفة سليمان بن عبد الملك عام ٧١٥م.

وبيولوجيته، وغيرت كل كوكبنا، إلى درجة معينة[٣].

فمع ازدهار الخضرة والنباتات، فجاة، في نهاية العصر الجليدي، ظهر قمح هجين، في أماكن عدة من منطقة الشرق الأدنى، وأحد هذه الأماكن النموذجية كانت الواحة القديمة في أريحا.

وقد وجدت أريحا الفلسطينية قبل البدء بمرحلة الزراعة، وأول أناس أتوا إلى هذه المنطقة، واستوطنوا فيها بجوار النبع، هم الذين كانوا يقتاتون القمح البري، دون أن يعرفوا كيف يزرعونه، ودليل ذلك أنهم صنعوا مناجلاً من الصوّان، بقيت، حتى الآن، وقد وجدها «جون غارستنغ»، عندما قام بعمليات التنقيب والحفر، في هذه المنطقة، خلال العقد الرابع من هذا القرن، وكان طرف المنجل القديم هذا يثبّت في قطعة قرن غزال أو عظم[٤].

وبعد ذلك لم يعد ينمو على تلال أريحا وسفوحها ذلك القمح البري، الذي كان السكان الأوائل يحصدونه، ولكن الأعشاب التي ظلت تنمو بعد هذا القمح هناك، كانت دون شك تشبه، إلى حد بعيد، القمح الذي وجدوه، أولاً. والذي كانوا يمسكونه بقبضة اليد، ثم يقطعونه بالمنجل، بنفس الحركة الحصادية التي استعملها الحصادون، منذ ذلك التاريخ، مدى عشرة آلاف عام، وهذا ما دُعي بالحضارة النطوفية Natufian التي سبقت مرحلة الزراعة[٥].

واكتشفت آثار هذه الحضارة في وادي النطوف بجوار القدس، ولم تقتصر هذه الحضارة على وادي النطوف، وحده، بل كانت منتشرة في أماكن عديدة من فلسطين وغيرها[٦].

ويميل الأستاذ «تشيلد» إلى اعتبار هذه

الحضارة ممثلة لمرحلة الانتقال، من جمع الطعام إلى إنتاجه(٧).

وبالطبع، لم تدم تلك الحضارة؛ لأنها كانت قاب قوسين أو أدنى من أن تصبح حضارة زراعية، وكان ذلك هو الحدث الهام الذي كانت تلال أريحا مسرحاً له.

إن نقطة التحول الهامة التي تسببت في انتشار الزراعة في العالم القديم، كانت ظهور نوعين من القمح، ولم يكن القمح، قبل عام ٨٠٠٠ق.م.، النبات الغزير، كما نعرفه الآن.

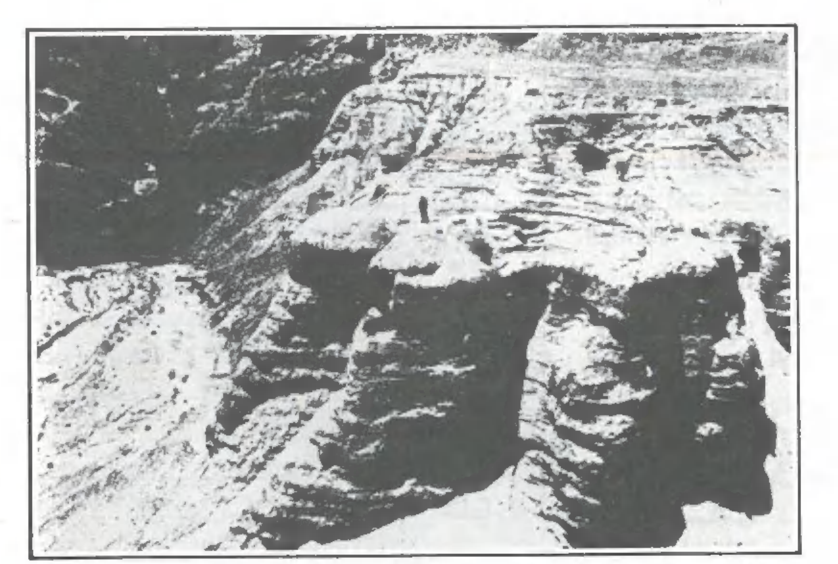
كان مجرد واحد من أنواع الأعشاب البرية العديدة، التي كانت تنتشر في بقاع الشرق الأدنى؛ وعن طريق الصدفة الوراثية، حصل تهجين لهذا القمح البري مع كلأ الماعز الطبيعي، وتشكل نتيجة لذلك نبات هجين كثير النتاج، ولا بد أن تلك الصدفة قد حدثت عدة مرات، خلال فورة نمو الأعشاب الخضراء، إثر انتهاء العصر الجليدي؛ فما حدث في هذه الصدفة، حسب الآلية الوراثية التي توجه عملية النمو، هو أن الصبغيات «الكروموسومات» الأربع عشرة للقمح البري اندمجت مع صبغيات كلأ الماعز الأربع عشرة، وتشكل القمح الآسيوي الأوروبي Emmer، ذو الصبغيات الثماني والعشرين، وهذا الدمج هو ما جعل هذا النبات الهجين أكثر امتلاء؛ وقد انتشر هذا القمح الهجين، بشكل طبيعي، لأن حبوب هذا القمح ملتصقة بقشورها داخل السنابل، بشكل يمكّن الرياح من حمل هذه الحبوب ونشرها.

إن كون الهجين شديد الخصوبة أمر نادر، ولكنه ليس فريداً في نوعه بين النباتات، غير أن قصة ازدهار النبات، في الحقبة التي تلت العصر الجليدي، أصبحت أغرب؛ ذلك أن صدفة وراثية ثانية طرأت على القمح الهجين، عند زراعته، تكراراً، فقد أدى تزاوج هذا القمح الهجين مع كلأ الماعز الطبيعي، مرة ثانية، إلى إنتاج قمح هجين جديد، أكبر من الهجين الأول، ويحوي اثنين وأربعين صبغياً؛ وهذا القمح هو الذي يعرف، حالياً، بقمح الخبز Bread Wheat. وكانت هذه الصدفة حادثة غير متوقعة، بحد ذاتها؛ ذلك أنه من المسلم به، الآن، أن قمح الخبز ما كان يمكن أن يغدو قادراً على التكاثر، لولا حدوث عملية طفرة وراثية في إحدى تلك الصبغيات؛ لكن هناك ما هو أكثر غرابة من ذلك، إذ أصبح لدينا، الآن، سنبلة قمح جميلة رائعة، لكنها لا تستطيع نثر حبوبها بواسطة الريح، وذلك لتماسك حباتها، نتيجة كثرة الحبوب فيها وازدحامها. وإذا ما فرطت هذه السنبلة، فإن قشورها الجافة تطير، وتقع كل حبة إلى الأسفل، في المكان الذي نمت فيه، وبذا وفجأة، التقى الإنسان الراغب في البقاء في مكانه بالنبات الذي لا يتطاير بالرياح، فلقد أصبح لدى هذا الإنسان حنطة يقتات بها؛ وأصبحت الحنطة معتمدة على الإنسان، لأنه السبيل الوحيد الذي يمكن بواسطته أن تتكاثر. ذلك أن قمح الخبز لا يمكن أن يتكاثر إلا بمساعدة الإنسان؛ إذ يترتب على الإنسان أن يحصد السنابل، وينثر حبها؛ إذن اضحت حياة كل منهما تعتمد على الآخر.

إن هذا التوافق السعيد بين الطبيعة والإنسان، هو الذي أدى إلى نشوء الزراعة؛ وفي أريحا ـ الكيان المصغر للتاريخ ـ حدث هذا، منذ حوالي عشرة آلاف سنة(٨).

ومن هنا بدأت الحضارة، وقدم الفلسطينيون للعالم القديم اختراعاً من أهم اختراعات البشرية، قبل ظهور القرآن والإنجيل والتوراة بآلاف السنين. وهكذا أصبح جامع الغذاء منتجاً له، الآن؛ وليس لدينا دليل على ممارسة أي شعب آخر للزراعة، في مثل هذا العصر البعيد؛ ويبدو أن المهاجرين الساميين الأولين إلى مصر، إنما أتوا من فلسطين، وأدخلوا معهم القمح؛ والكلمة التي تعني القمح gmhw ـ في اللغة المصرية القديمة هي، بلا ريب، مشتقة من الكنعانيين(٩).

وقد مهدت زراعة القمح الطريق لسائر الحبوب كالشعير، والذرة، مثلاً، وفيما بعد



□ أحد كهوف قمران فلسطين.

للثمار؛ مثل العنب، والتين، والزيتون، وكذلك لمختلف أنواع الخضار التي زرعت جميعها، وتحسنت قبل أن يبدأ التاريخ(١٠). وقد واكب هذا الحدث العظيم (زراعة القمح)، أو سبقه، حدث آخر عظيم، وهو تدجين الحيوان، حيث وجد في أحد كهوف الكرمل جمجمة لكلب كبير، يستدل منها أن الإنسان الفلسطيني شرع في تدجين الحيوان، في هذه الفترة الموغلة في القدم، كما أن الآثار، التي عثر عليها في أريحا، تدل على تدجينه للبقر، والماعز، والغنم، والخنازير، وبذلك يكون الفلسطينيون، على الأرجح، أول من اكتشف النار، ودجّن الحيوان، وزرع النبات(١١).

يا لها من روعة، روعة المدنية، وروعة المدينة، الفريدة من نوعها، المتحف المصغر للتاريخ، أُم المدن أريحا؛ إنها طبقة فوق طبقة من التاريخ. كانت أريحا، المعروفة بمياهها العذبة، واحة على تخوم الصحراء، تفجّر فيها نبعها، مع فجر التاريخ، وفي هذه البقعة اجتمعت المياه والقمح معاً، ومن هذا المنطلق بدأ الإنسان الحضارة هناك، وهكذا نجد الماء والقمح قد حولا سفوح تلك التلال الجرداء إلى أقدم مدينة في العالم(١٢).

وفي هذه البقعة تمكّن الإنسان من فهم العالم الحي، الذي يعيش فيه، وتشكيل هذا العالم بالشكل الذي يريد. وهكذا بدأ الإنسان مسيرة الحضارة، عندما وضع يده على النبات والحيوان؛ وبتعلمه كيف يعيش معهما، غيَّر العالم، تبعاً لحاجاته ومتطلباته.

وحوالي الألف السادس قبل الميلاد، كانت أريحا مستوطنة زراعية كبيرة، وتقدّر كاثلين كينيون أن عدد سكانها كان حوالي ثلاثة آلاف، وتبلغ مساحتها، داخل السور، من ثمانية إلى عشرة أفدنة، وكانت النساء يطحنّ القمح فيها برحى ثقيل، ووجود آلات ثقيلة من مميزات المجتمع المستقر (مقارناً بمجتمع البدو الرحل)؛ أما الرجال فكانوا يجبلون الطين بالماء، ويشكلون منه لبنات للبناء؛ وهذه هي أقدم لبنات معروفة في التاريخ. ولا تزال آثار أصابع صانعي اللبنات موجودة عليها، حتى الآن. بذا أصبح الإنسان مرتبطاً بموضع ومكان، مثله في ذلك مثل قمح الخبز(١٣). ومن هنا بدأ فن البناء والعمارة؛ ومنذ ذلك الوقت وإلى يومنا هذا وحتى تقوم الساعة، كل لبنة وضعت على لبنة، وحجر صف فوق حجر، مدين إلى تلك اللبنات والأحجار الأولى التي

شهدت على عظمتها الدكتورة «كاثلين كينيون»، حيث تقول:

لقد كان بناء المساكن في أريحا الأولى ممتازاً؛ والغرف واسعة نحو ٦,٥×٤ أمتار أو ٧×٣ أمتار؛ وكانت الغرف، عادة، مستطيلة الشكل، كما كانت تبنى حول ساحة سماوية، أبعادها نحو سبعة أمتار طولاً وعرضاً، وكانت الساحات تستعمل للطبخ، وكان سمك الجدار نحو نصف متر، وكانوا يستعملون الحجارة في البناء، وخاصة الأساس والمداميك الأولى، أما البقية فمن الطوب المصنوع من الطين؛ وكان الطوب يشكل باليد، ويجفف تحت أشعة الشمس، وكانت أرضية البيت من طبقة طينية، تعلوها طبقة من الجير الناعم، المصبوغ باللون الأحمر، أو الأصفر الخفيف الصفرة، ثم كان يصقل هذا، صقلاً شديداً، حتى يكتسب لمعاناً جميلاً، وكان الجير الناتج قاسياً، يمسح وينظف بالماء، فلا يتشقق أو يتقشر.

وكانت المساكن ذات طبقة واحدة، ولم يعرف من الآثار مبلغ ارتفاعها، ولكن يظهر أن بعضها كان ذا طبقتين. وكانت السقف تصنع من القصب والطين. وخلاصة القول، بلغة كينيون، مكتشفة أريحا الأولى، إن البيوت فيها كانت حسنة ومتينة، ذات تخطيط جيد، بل إن هنالك دلائل تشير إلى درجة من الدعة والترف، فقد فرشت أرضيات بعض البيوت بالحصير، وهذا أمر يدعو إلى العجب بالنسبة لقدم الزمن[١٤].

وإذا أردنا إدراك مدى أهمية الزراعة في الاستقرار والكثافة السكانية في تلك الحقب. فما علينا إلا الرجوع لحسابات العالم الأمريكي «برايدوود»: «كانت كثافة توزع الصيادين وجامعي النباتات البدائيين في الشرق الأوسط، في الفترة المتأخرة من عصر البليستوسين، منذ فترة تتراوح بين ٢٥ ألف سنة و١٠ آلاف سنة، لا تتجاوز ٣ أشخاص، في كل ١٦٠ كيلومتراً مربعاً، وكانت كثافة توزع جامعي النباتات المختصين، منذ ١٠,٠٠٠ سنة، تقريباً، تبلغ ١٢,٥ شخص في كل ١٦٠ كيلومتراً مربعاً. أما في التجمعات الزراعية الحضرية الأولى فصارت تبلغ ٢٥٠٠ شخص في كل ١٦٠ كيلومتراً مربعاً، أي ازدادت أكثر من مئتي ضعف، مقارنة بالفترة السابقة»[١٥].

وفوق ذلك، فقد أدى هذا الاستقرار، وارتباط الإنسان بالمكان، إلى تطور اللغة. والذي يذهلنا اليوم هو درجة الإتقان التي وصلتها اللغة، بفعل العقل البشري، في العصر الحجري القديم. وتُرينا مقارنة العربية الحديثة الدارجة، مثلاً، بما يمكن معرفته من اللغة السامية الأُم تطوراً مستمراً نحو التبسيط، بالنسبة للمستوى العالي، في عصور ما قبل التاريخ البعيدة[١٦].

لا شك أن الزرع الذي نبت من الأرض، لفت أنظار المزارعين إلى التفكير في أصل الحياة، رأى الزارع أن تلك الحبة التي بذرها، نبتت واخضرت، وآتت ثمارها، ثم زرع من تلك الثمار حبة أُخرى، فتكررت معجزة الحياة، وفكّر في تلك الحياة المتكررة المتجددة، التي لا يمكن أن تموت، موتاً نهائياً. وكان من الطبيعي أن يدخل في روعه الاعتقاد بأن هذا الشيء الحي الذي لا يموت، يجب أن يكون إلهاً. واعتقدوا بأن روح هذه الحياة الخضراء النابتة من الأرض، وكانوا يرون هذه الحياة المخضرة تذوي، كل عام، وتتراءى لناظرها كأنها ماتت، وفارقت الحياة، لكنها كانت تعود، مرة أُخرى، إلى حياتها ونضرتها[١٧].

ومن هنا تبلورت فكرتان دينيتان، فكرة وجود آلهة تقرن بالأرض، وفكرة مبهمة عن وجود حياة ثانية بعد الموت. وقد وجدت بين الآثار التي أسفرت عنها حفريات وادي النطوف في فلسطين، آنية خزفية لخزن الطعام وقرابين أُخرى؛ تدل على اعتقاد الإنسان بأن هنالك نوعاً من الحياة، بعد الموت. وفي الواقع، فإن آثار هذه المعتقدات، قد تعود إلى زمن من أقدم من هذا الزمن، غير أن تربية المواشي



□ أريحا: أقدم سور مدينة معروف في العالم.

وممارسة الزراعة، جعلت الديانة أكثر تعقيداً، وصاروا يفضّلون الآلهة التي تهتم بالحقول والمواشي، على الأرواح التي يعتمد عليها الصيادون. ففي مرحلة حياة الرعي، كان الناس على ما يظن، يعبدون الإله القمر، الذي كان أكثر نفعاً وتلطفاً من الشمس، في بلاد حارة مثل فلسطين؛ وكان القمر يبدد رهبة الظلام، ويأتي بالبرودة، التي يمكن للقطعان أن ترعى فيها براحة، ولذا كان صديق الراعي أكثر من الشمس. والمعبد الذي وجد في أريحا، يرجع إلى الألف السادس قبل الميلاد، ربما كان يكرس لعبادة القمر، واسم أريحا يعني القمر[١٨].

وأثناء نشوء الحياة الزراعية، أوجد الإنسان في فكره ارتباطاً بين النمو والآلهة والشمس، وكذلك عبادة الأرض الأم، بشخص آلهة للخصب، تتعهد شؤون الزراعة، واتخذت الديانة شكلاً مؤنثاً واضحاً، لسبب آخر، وهو أن المرأة يمكنها أن تمارس الزراعة، بسهولة أكثر من ممارسة الصيد. والرموز المتعلقة بطقوس العبادة، وكذلك الميتولوجيا المتصلة بآلهة الخصب، التي بلغت ذروتها، فيما بعد، في قصص أدونيس، وعشتار، وأوزيريس، كانت أصولها، في هذه الفترة، ولا بد أن التماثيل الثلاثة التي أتت من أريحا القديمة، تشمل الأب والأم والابن، كان لها معنى طقسي، كما أنها تفيدنا بأن نظام العائلة، كان قد اتُّخذ، في الألف الخامس، الشكل الذي اتخذه بصورة دائمة، فيما بعد[١٩].

ويرى العلامة جيمس هنري برستد: أن أهل هذه المنطقة كانوا يرمزون للحياة المتجددة بشجرة؛ وكانوا يقيمون، في كل عام، احتفالاً

كبيراً، ينصبون فيه شجرة، ويزرعونها، ثم يزينوها، ويكسونها بالأوراق الخضراء. وورث الغربيون هذه العادة، وما زالوا يحتفلون بها[٢٠]. وما أرى احتفالات عيد الميلاد إلا استمراراً للاحتفالات الأولى. وكان الناس يقصدون من هذا العيد أن يعبروا عن شعورهم نحو اعتمادهم على تجديد الأرض للحياة، ذلك التجديد الذي أمدهم بالقوت، الذي يحصلون عليه من حقول الحبوب، وبعبارة أخرى كان مظهراً دينياً لاعتراف الناس بفضل الزراعة عليهم.

ومن الآلهة التي قرنت، فيما بعد، بزراعة الحبوب - الإله - «داجون»، الذي عرفه الأموريون، في الألف الثالث قبل الميلاد. وكان إله الحبوب، وشفيع المزروعات، وعبده الكنعانيون، وتوارثه عنهم الفلسطينيون، وأصبح معبودهم الأول أو القومي. وقد خلد اسم هذا المعبود في القرى التي تحمل اسم بيت دجن في فلسطين، وقد شاعت عبارة داجون، في أماكن أخرى من الشرق العربي[٢١].

وقد عرف عن الكنعانيين تطويرهم للغة والديانة المتواجدة في فلسطين قبلهم. وقد عرفنا منهم «ملكي صادق»، ملك القدس وكاهنها، أو النبي فيها، الذي كان وشعبه من المعتقدين بالله، بدليل سجلات التاريخ الديني الكنعاني، وأسفار التوراة نفسها، وخاصة سفر التكوين، الذي يخبرنا بأن «ملكي صادق» أخرج خبزاً وخمراً، وخرج إلى إبراهيم، مرحّباً به؛ ولما كان ملكي صادق كاهناً لله العلي، كما تقول النصوص العبرية، فقد بارك إبراهيم، قائلاً: «مبارك ابراهيم من الله العلي، مالك السمٰوات والأرض». أفليس هذا الإقرار بكاف للبرهنة على أن للقدس وملكها وفلسطين فضل كبير على العالم، لأن فيها وضعت أسس حياة العالم الدينية، وأن فلسطين كانت مقدسة، قبل أن يأتيها إبراهيم نفسه، بزمن طويل. وقد أيدت الحفريات هذه الحقيقة، فنجد العالم «ج. جراي» يقول عن وثائق أوغاريت الأثرية: «إن الدراسة التفصيلية لهذه الوثائق، تكشف عن نقاط اتصال غزيرة بينها وبين التوراة، وفوائدها في دراسة التوراة جمة؛ فهي تسجل، بصورة وثائقية، عبادة الخصب عند الكنعانيين، التي تأثر بها العبرانيون؛ كما تسجل العادات الاجتماعية، والعلاقات العائلية، والفضائل المتبعة عند الإسرائيليين، المقتبسة من الكنعانيين»[٢٢].

وفي هذا المضمار يرى فيليب حتي أن الكثير من خير ما تركه التراث الأدبي الكنعاني، اقتبسه العبرانيون، ودخل في كتاباتهم المقدسة، وينطبق هذا، خاصة، على القطع الغنائية، والحكم التي استعارها سفر الأمثال، والمزامير، ونشيد الانشاد وعلى الأخبار الخرافية، التي دخلت في سفر التكوين وقصص الأنبياء، ولم يكن هذا الأمر معروفاً، إلى أن اكتشفت مدينة أوغاريت[٢٣].

الزراعة وتدجين الحيوان عمليتان تبدوان بسيطتين، ولكن الأمر، في حقيقته، يدل على أن العمليتين لا تقفان جامدتين، دون حراك أو تطور؛ ذلك أن كل مرحلة من مراحل تدجين الحيوان والنبات، تتطلب سلسلة من الاختراعات، التي تبدأ بابتكار أجهزة ووسائل فنية تقنية. ومن هذه تتدفق المبادىء العلمية. إن الوسائل والأجهزة الأساسية التي ابتدعها عقل الإنسان وأصابعه في أريحا تعادل، في براعة صنعها وأهميتها لارتقاء الإنسان، أي جهاز من أجهزة الفيزياء النووية. مثال ذلك: الإبرة، والمخرز، والقدر، والمسمار، والكور، والوتر، والعقدة، وآلة النسيج، والسرج، واللجام، والزر، الحذاء، وما إلى هنالك من مئات الأشياء الأخرى التي يمكن للمرء تعدادها، والثراء يأتي من تفاعل الاختراعات فيما بينها، والثقافة تضاعف الأفكار والآراء، بحيث إن كل ابتكار يسارع ويضخم قوة بقية الابتكارات.

إن الزراعة المستقرة تخلق تقنية تنبثق منها جميع العلوم، ويمكننا أن نلمس ذلك من خلال تطور المنجل البدائي إلى المنجل الذي تلاه. فللوهلة الأولى يبدو المنجلان متشابهين جداً؛ منجل الإنسان جامع العشب البري، قبل عشرة آلاف سنة، والمنجل الذي عمره تسعة آلاف سنة، عندما بدىء بزراعة القمح والعناية به، ولكننا إذا ألقينا نظرة مدققة، نجد أن المنجل التالي الذي كان يستعمل لحصاد القمح المزروع، كان ذا حد مسنن (بينما لم يكن المنجل البدائي مسنن الحد)؛ فلو حصد القمح بالمنجل البدائي لاضطر الإنسان إلى ضرب نبات القمح بحده، وهذا يسقط الحب من السنبلة إلى الأرض؛ أما إذا حصدناه قطعاً بوساطة منجل مسنن الحد، فإن الحنطة تبقى في السنابل. ومنذ ذلك الحين، لم يطرأ تطور يذكر على المنجل المسنن، حتى الحرب العالمية. وهناك العديد من التقنيات والمعرفة الفيزيائية الشبيهة بتقنية المنجل المسنن، أتت إلينا من كل ناحية من نواحي الحياة الزراعية، تلقائياً، لدرجة أننا نشعر وكأن الأفكار تكتشف الإنسان، وليس العكس، كما يظن البعض[٢٤].

إن أقوى اختراع في الزراعة كلها هو، بالطبع، المحراث، ويحلو لنا أن نظن بأن المحراث مجرد وتد يشق التربة، ومع أن هذا الوتد، بحد ذاته، اختراع ميكانيكي هام قديم، إلا أن المحراث، أيضاً، شيء أساسي، أكثر من ذلك بكثير: إنه عبارة عن رافعة ترفع التربة، وهو أول تطبيق عملي لمبدأ الرافعة. وعندما فسر أرشميدس للإغريقيين، بعد ذلك بوقت طويل، نظرية العتلة الرافعة، قال إنه بواسطة التحكم بنقطة الارتكاز في الرافعة، يمكنه أن ينقل الأرض. لكن حراثي أريحا كانوا يقولون، قبل ذلك بآلاف السنين: «أعطني رافعة وسأطعم الأرض»[٣٠].

وباكتشاف الزراعة، ازدادت حاجة الإنسان إلى الأواني والأطباق المصنوعة من الأحجار، المأخوذة من صخور محلية ناعمة، يمكنها أن تعطي وجهاً مصقولاً جميلاً للأواني. ومن المحتمل جداً أنه وجد لديهم بعض الأواني المصنوعة من الجلد والأخشاب. وعندما تعلم الإنسان صنع الأواني من الطين، وخبزها، فإنه قام باكتشاف آخر بالغ الأهمية في تقدمه الحضاري، وسرعان ما حلت الأواني الخزفية محل الأواني من اليقطين، والجلود، والحجارة، والأخشاب التي كانت تخدم حاجته الاقتصادية، حتى ذلك الوقت، ولو بصورة غير تامة؛ وكان مؤدى الاختراع الجديد أن صار الإنسان بإمكانه العيش على مسافة من مورد المياه التي يحتاج إليها، وأن يطبخ طعامه، طبخاً حقيقياً، بدلاً من أن يأكله نيئاً أو مشوياً. وأهم من ذلك أنه صار يتمكن من خزن ما لا يمكنه استهلاكه، في وقت معين، ليستخدمه في المستقبل. وهكذا أضاف الإنسان، إلى سيطرته على مورد الطعام، سيطرته على حفظه.

ويظهر الخزف في فلسطين في إحدى الطبقات الدنيا في أريحا، ويعتقد «غارستانغ» أنه اخترع هناك، وقد اتخذ الخزف، في أول الأمر، شكل أحواض مجوفة في الأرض، ثم أشكال جرار، وغيرها.

إن اضافة الخزف إلى أدوات الإنسان البيئية قد أسدت للإنسان خدمة جليلة، ذلك أن الخزف غير قابل للتلف، بالرغم من أنه يمكن أن يتحول إلى قطع مكسّرة لا حصر لها؛ وأسلوب صنعه وزخرفته يظهر لنا ذوق العصر وأزياءه؛ وتوزع الخزف يعطينا أحسن دليل للعلاقات التجارية القديمة. ولذلك فإن دراسته تفتح للعالم الحديث نافذة واسعة يمكنه أن يتطلع منها إلى الماضي المظلم. وتفتح لنا الأواني المعدنية نافذة أخرى. وبظهور الخزف والمعدن ننتقل من عصر ما قبل التاريخ إلى العصور التاريخية[٢٦].

كما لعبت الزراعة دوراً بارزاً في نشوء فن التجارة، ونمو التبادل، وإمكانات الانتشار

السريع للمنجزات الاقتصادية في أراض واسعة، وما وجود الحجر الزجاجي البركاني الأسود في أريحا إلا دليلاً على وجود علاقات تجارية بينها وبين منطقة ديار بكر في الأناضول وغيرها[27]. ولا شك أن ازدهار التجارة حفز الإنسان إلى معرفة الأصول الحسابية، والإلمام بالأصول الجغرافية، أيضاً، واشتراع القوانين، التي كادت تنظم الملكية والعلاقات التجارية والروابط الاجتماعية وغيرها.

وباكتشاف الزراعة، أصبحت حاجة الإنسان ماسة إلى معرفة أوقات البذر والحصاد؛ ومن ثم أخذ يراقب النجوم، ويتتبع حركة الشمس، لتدله على دورة الفصول. من هنا كانت أول معرفة للإنسان بعلم الفلك.

وثمة اختراع آخر عرفته أريحا الأولى، وهو الحياكة، وأن بقاء بعض قطع النسيج، منذ ذلك الزمن السحيق، يبدو مستحيلاً، لكنه وجد من الأدوات ما يشبه المغازل.

وإن أردنا تتبع أفضال الزراعة على الحضارة، لاحتجنا إلى مجلدات، فرأينا الاكتفاء بهذه العناوين، وتحت كل عنوان ملحمة رائعة؛ لأن القصد هو التذكير بما قدمت فلسطين من خدمات، هي أساس الحضارة الحديثة، وأفكارها، ومعتقداتها. ولأردد شهادة التاريخ بأن شعبنا من طينة عجيبة، وصفها الأقدمون بأنها طينة الآلهة؛ لأن الآلهة يخلقون والفلسطينيون يخلقون، الإرادة الإلهية خلقت البشر، والفلسطينيين خلقوا مدنية البشر، ولم تنطفىء عندهم شعلة الخلق، بدليل أنهم ما زالوا في الظروف المؤاتية يخلقون.

•

الهوامش

(١) محمد أديب العامري، **عروبة فلسطين في التاريخ**، بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٧٢، ص ٤٢.

(٢) مصطفى مراد الدباغ، **بلادنا فلسطين**، الجزء الاول، القسم الاول، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٥، ص ٣٥٣ وما بعدها.

(٣) غولايف، **المدن الأولى**، ترجمة طارق معصراني، موسكو، دار التقدم، ١٩٨٩، ص ٢٨.

(٤) ج. برونوفسكي، **ارتقاء الإنسان**، ترجمة د. موفق شخاشيرو، الكويت، سلسلة علم المعرفة، ١٩٨١، ص ٢٠.

(٥) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

(٦) العامري، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٠.

(٧) G. Child; **What happened in history,** New York, 1964.

أورده: د. رشيد الناضوري، دراسات مقارنة في حضارات مصر وغربي آسيا، القاهرة، ١٩٢٦، ص ١٧.

(٨) برونوفسكي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٣.

(٩) فيليب حتي، **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، ترجمة د. جورج حداد؛ ود. عبد الكريم رافق، بيروت، دار الثقافة، ١٩٥٨، الجزء الاول، ص ١٧.

(١٠) **المصدر نفسه**، ص ١٨.

(١١) الدباغ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٥٨.

(١٢) برونوفسكي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٤.

(١٣) **المصدر نفسه**، ص ٢٥.

(١٤) العامري، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٦، عن رسالة للدكتورة كينيون إلى مؤلف هذا الكتاب، في ٢٧/١/١٩٧٠.

(١٥) غولايف، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٠.

(١٦) حتي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩.

(١٧) جيمس هنري برستد، **انتصار الحضارة ـ تاريخ الشرق القديم**، ترجمة د. أحمد فخري، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ص ٩٢.

(١٨) فيليب حتي، **لبنان في التاريخ**، ترجمة د. أنيس فريحة، بيروت، ١٩٥٦، ص ٦٧.

(١٩) حتي، تاريخ...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٠.

(٢٠) برستد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٣.

(٢١) الدباغ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٠٥.

(٢٢) العامري، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٠.

(٢٣) حتي، تاريخ...، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٣.

(٢٤) برونوفسكي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٩.

(٢٥) **المصدر نفسه**، ص ٣٠.

(٢٦) حتي، تاريخ...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٢ ـ ٢٣.

(٢٧) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، المجلد الثاني، بيروت، ١٩٩٠، ص ٢٠.